العصامية في الشعر العربي

Self-taught in Arabic poetry

الاستاذ المساعد الدكتور

فاضل عواد الجنابي

.Assistant Professor Dr

Fadel Awad Al-Janabi

كلية السلام الجامعة

University College of Al-Salam

الخلاصة

المحور الرئيس في البحث هو معرفة مصدر العصامية تأريخاً، فقد أكد المؤرخون وأرباب اللغة اقتصار العصامية على آحاد من الناس وهذا ما يخالف الحقيقة التاريخية، لاختلاف أساليب الوصول لتحقيق المراد بالجهد الذاتي، الفردي دون الاعتماد على تراث الآباء والأجداد والتدرج من أدنى الأعمال إلى أرقاها منصباً ومقاماً، وأن كانت النتيجة واحدة، لكن أساليب نيل المراد كثيرة، منها: الحنكة الإدارية واستيعاب سياسة الملوك، والايثار والنزعة الاشتراكية، والفروسية وقيمها الأخلاقية، والسياسة الحكيمة في إدارة الدولة، أو من خلال العبقرية الخلاقة والصياغة الشعرية الباهرة، والمعاني الراقية، المستحدثة وهذا ما كان عليه المتنبي المعروف بشاعر العرب الأوحد بلا منازع ومثيل ويبقى الباب مفتوحاً لكل مجتهد مناضل للترقي، متحدياً الصعاب والمشاق للوصول إلى أعلى المناصب دون الاعتماد على أحد وتراث قديم!!.

Abstract

The main axis in the research is to know the source of self-taught historically. Historians and language authorities have emphasized the limitation of self-taught to individual people, and this contradicts the historical reality due to the different methods of access to achieve the goal by individual self-effort without relying on the heritage of fathers and ancestors and gradation from the lowest work to the highest position and station, though the result may be the same, but the methods for achieving the desired are many, including administrative wisdom and understanding the policy of kings, altruism, socialism, chivalry and their moral values, wise policy in managing the state, and genius and creative formulation of poetry through the newly-introduced sublime meanings. That was the case of Al-Mutanabbi who is known as the only undisputed Arab poet with no rival and resemblance, where the door remains open for every diligent fighter for advancement, who confronts difficulties and hardships to reach the highest positions without relying on anyone nor on any ancient heritage.

الفصل الأول

موقف الفكر الفلسفي والعقائدي من النفس البشرية

لقد أشغلت النفس البشرية فلاسفة وحكماء ورجال الإصلاح منذ ظهور الحضارات الإنسانية في الألف الثالث قبل الميلاد فما دون، منها حضارة وادي الرافدين وكانت تعددية الآلهة هي العقيدة السائدة آنذاك، إذ جعلوا لكل ظاهرة وقوة قاهرة إلهاً ليحميهم ويتقوا غضبه، ويحميهم مما يخافون منه، كالطوفان والأوبئة الجارفة والصواعق والخسوف والكسوف، إذ عدّوها نذير شؤم وكارثة تحل فيهم، ومن خلال الآثار الفكرية الفلسفية والأدبية والعلمية والفنية نتعرف على مرادات كل شعب وأمانيه ومخاوفه، ففي وادي الرافدين كانت إشكالية الحياة والموت، والفناء والخلود، والقدر الذي لا مفر منه، ومصير الإنسان بعد الموت هي المؤرقة لأذهان الناس، حتى ظهرت ملحمة جلجامش في الألف الثاني قبل الميلاد[1]، إذ هي من أكثر الملاحم الشعرية البابلية شهرة في العالم، فاختار مؤلفها الملك السومري (جلجامش) من سلالة الوركاء الأولى[2] بطلاً أسطورياً لملحمته، إذ انطلق من (أوروك) في رحلة طويلة شاقة لملاقاة الحكيم (أوتورنبشتم) للحصول على سر الخلود، وانقسمت الآلهة فيما بينها، منها مؤازرة له وأخرى مناهضة ضده، رغم أن ثلثي جسده إلهياً والآخر إنسانياً، ورافقه في رحلته صديقه (انكيدو) ولاقوا من الأهوال والصعاب ما لا يحتمله البشر، حتى قال جلجامش لانكيدو: «يا صديقي من ذا الذي يستطيع أن يقهر الموت، فالآلهة وحدهم الذين يعيشون إلى الأبد مع «شمش» أما البشر فأيامهم معدودات، وكل ما عملوا

(١) ملحمة جلجامش/ طه باقر، ص١٨.

(٢) م.س، ص٢٦، العراق القديم مجموعة من علماء الآثار السوفيت، ص٣٨.

عبث يذهب مع الريح»[١]، واستطاع الاثنان قتل المارد (خمبابا) حامي غابة الأرز[٢]، وكذلك قتلا الثور السماوي أيضاً[٣]، فاجتمعت الآلهة لمعاقبة أحدهما فقررت أن يموت أنكيدو ويبقى جلجامش حيّا، فمرض انكيدو إذ أصابته لعنة عشتار ابنة إله السماء (آنو) وأسف أن يموت حتف أنفه، إذ أن من يسقط في «القتال هو المبارك»[٤]، هذا ما قاله جلجامش ثم مات، فأخذ جلجامش بالبكاء والعويل عليه ثم أمر بصنع تمثال له من الذهب واللازورد المطعم بالجواهر والأحجار الكريمة تكريماً له[٥].

ومن الغريب ذكر الشيطان الرجيم بقول جلجامش آسفاً لموت انكيدو: «إنه فرحتي وبهجتي وكسوة عيدي، لقد ظهر شيطان رجيم وسرقه مني»[٦]، ثم تابع للقاء أوتو- نبشتم الذي دخل مجمع الآلهة فصار خالداً، وفي الطريق دخل حانة بعد معاناة شديدة ليقنع صاحبتها لفتح الباب له، وبعد أن ذكر لها من هو؟ وأعماله البطولية فتحت له الباب وقال لها: «فيا صاحبة الحانة وأنا أنظر إلى وجهك، أيكون في وسعي ألا أرى الموت الذي أخشاه وأرهبه؟» فأجابته: «إلى أين تسعى يا جلجامش؟ إن الحياة التي تبغي لن تجد، حينما خلقت الآلهة البشر قدرت الموت على البشرية واستأثرت هي بالحياة!!»[٧]، ثم أوصت ملاح سفينة أوتو -نبشتم إيصاله له، وبعد عبور مياه الموت الخطرة، التقى أوتو- نبشتم ليذكر له خوفه وفزعه من الموت فقال له أوتو- نبشتم: «إن الموت قاس

(١) عقائد ما بعد الموت/ نائل حنون، ص٤١، ملحمة جلجامش/ طه باقر، ص٧٥.
(٢) م.س، ص٨٦.
(٣) م.س، ص٩٣.
(٤) م.س، ص٩٧.
(٥) م.س، ص١٠٧.
(٦) ملحمة جلجامش/ طه باقر، ص١٠٦.
(٧) م.س، ص١١٥.

لا يرحم، متى بنينا بيتاً يقوم للأبد، ... ولم يكن دوام وخلود منذ القدم، وما أعظم الشبه بين النائم والميت!!.... ومن ذا الذي يستطيع أن يميز بين العبد والسيد إذا وافاهما الأجل؟!!»[1]، ثم ذكر له بأنه عليه الحصول على النبات الذي فيه سر الخلود بعد أن وصفه له، وبأنه في أعماق المياه، فنزل جلجامش غائصاً حتى وصل إلى النبات العجيب فأخذه وارتفع راجعاً إلى السطح ثم قال للملاح أور- شنابي: «إن هذا النبات العجيب يستطيع المرء أن يطيل به حياته، لأحملنه معي إلى (أوروك) الحمى والسور، وأشرك معي الناس ليأكلوه، وسيكون أسمه: عودة الشيخ إلى صباه، وأنا سآكله في آخر أيام حياتي حتى يعود شبابي!!»[2]، ثم قفلا راجعين إلى (أوروك) وبعد قطع مسافة من الطريق، نزلا للمبيت والاستراحة، فترك جلجامش النبات السحري في أحد الأمكنة للاغتسال في ماء بئر قريب من مبيته، فشمت حيّة رائحة النبات فالتقطته لتستخدمه في إطالة عمرها ثم اختفت، فعلم جلجامش بذلك، وأخذ يندب حظه باكياً متألماً وهو يقول: «ليأتي هذا المخلوق فيخطف النبات مني»[3]، ثم عاد جلجامش والملاح إلى (أوروك)، لقد بدأت رحلة مريرة وانتهت فلسفة عظيمة لتؤكد: أن من أراد الخلود فليخلد نفسه بطيب الذكر والأعمال الجليلة المفيدة للإنسانية!![4].

وتعد الحضارة الفرعونية من الحضارات العريقة التي ظهرت في الألف الثالث قبل الميلاد (٣١٠٠-٣٤٣ ق.م)[5]، وقد أغنت الفكر الإنساني بالكثير من علومها وآدابها

(١) م.س، ص١٢٥-١٢٦.
(٢) م.س، ص١٤٣.
(٣) م.س، ص١٤٥.
(٤) العراق في التأريخ/ مجموعة من أساتذة التأريخ السوفيت، ص٧١، عالم الأديان/ فوزي محمد، ص١٢٣.
(٥) معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة/ مانفرد لوكر، ص٥٥٣.

وعقائدها وفنونها، حتى قال المؤرخ اليوناني هيرودت: «إن المصريين أشد البشر تدينا ولا يعرف شعب بلغ في التدين درجتهم فيه، فإن صورهم بجملتها تمثل أناساً يصلون أمام الآلهة وكتبهم في الجملة أسفار نسك وعبادة»[١]، واعتقد المصريون القدماء بآلهة عديدة، إلا ما كان من الملك امنحوتب الرابع المعروف بإخناتون الذي ألغى التعددية وآمن بإله واحد وهو إله الشمس (أتون) لهذا سمّي بإخناتون»[٢]، وأكثر ما أشغل المصريين هو القيامة والحساب وكتاب الموتى الذي كتب فيه مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال وأسلوب العبادة وطقوسها وشعائرها وعلى كل مصري استيعاب ما فيه من الحكمة والالتزام به، إذ يعد الكتاب المقدس الأعلى الذي: «يتعبدون بتلاوته وهم أحياء ويوضع معهم في قبورهم بعد الموت»[٣]، ليستعين به عند الحساب أمام إله يوم القيامة (أوزيريس) وفي المحكمة أثنان وأربعون قاضياً، ومنهم من يمثل إحدى مقاطعات مصر، وتوزن أعمال الإنسان في ميزان العدالة، إذ يوضع قلب الميت في إحدى كفتيه، وفي الكفة الأخرى ريشة تمثل الحق وعدالة الآلهة (معات)، وخوفاً من شهادة القلب ضد صاحبه الميت الخائف، فيقول الميت: «يا قلب لا تشهد ضدي، ولا ترجح الكفة أمام سيد الميزان!!»[٤]، فإذا توازنت الكفتان، تعلن براءته، ليدخل مملكة نعيم الإله (إيزيريس)، وإذا رجحت كفة السيئات على الحسنات يهجم عليه حيوان اسمه (الملتهمة) فيأخذه ويلقيه في الجحيم[٥]، وهكذا تحاسب كل نفس بمفردها على ما قامت

(١) عالم الأديان/ فوزي محمد حميد، ص٨٦.
(٢) م.س، ص١٠٣، معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة/ مانفرد لوكر، ص٢٣٨-٢٥٥.
(٣) عالم الأديان/ فوزي محمد حميد، ص١١٠.
(٤) م.س، ص١٠٨.
(٥) م.س، ص١٠٨.

به من أعمال حسنة كانت أو سيئة، وقد برع المصريون في تحنيط أجساد الموتى صيانة لها من التلف لتكون سليمة مهيأة للحساب، انطلاقاً من حكمتهم التي تقول: «لنسع للبقاء ولنتجنب الفناء»[١].

والعقيدة الهندوسية آمنت بآلهة شتى ولها مبادؤها وطقوسها وشعائرها ظهرت في الألف الثالث قبل الميلاد أيضاً[٢]، وكان أسلوب عيشهم أقرب من البداوة منه إلى الحضارة، ولكن بدخول الجنس الآري الأبيض الهند سنة (١٥٠٠ ق.م)[٣]، نقلوا معهم لغتهم وعقائدهم وآلهتهم وتراثهم الديني وكتابهم المقدس (الفيدا: المعرفة)[٤]، فتأثر الهنود بسجاياهم وعقائدهم وطبائعهم وقوانينهم[٥]، حتى أصبح كتابهم الديني هو (الفيدا) ويمكن القول أن: «أساس الهندوسية هو عقائد الآريين»[٦]، وكذلك تأثر الهنود بالجنس الأصفر التوراني[٧]، وبالتقاء الجنس التوراني مع الآري بدأ نظام الطبقات الظالم في الهند، فمن الآريين البيض طبقة رجال الدين (البراهمة) وطبقة المحاربين، ومن التورانيين طبقة التجار والصناعيين الحرفيين، أما الهنود الأصليين فهم الطبقة المنبوذة اجتماعياً (الشودرا)[٨]، ومنهم خليط من الخدم العبيد والأسرى ويخدمون الطبقات العليا الثلاث، حتى أساؤوا إليهم وجردوهم من انسانيتهم وحقوقهم الإلهية، ولكن

(١) م.س، ص١١٢.
(٢) أديان الهند الكبرى/ د. أحمد شلبي، ص٤٢.
(٣) م.س، ص٢٤.
(٤) م.س، ص٣٥، عالم الأديان/ فوزي محمد، ص١٧٥.
(٥) أديان الهند الكبرى/ د. أحمد شلبي، ص٢٤.
(٦) م.س، ص٤٠.
(٧) م.س، ص٢٤.
(٨) عالم الأديان/ فوزي محمد، ص١٨٥-١٨٦.

بعد قرون ذابت الآرية وظهرت الهندوسية التي تغلبت وسادت في الهند، وفي القرن التاسع قبل الميلاد اتفق كهنة الهنود على ثلاثة آلهة وهم: ابراهما: الخالق، وفيشنو: الحافظ، وشيفا: المهلك[١]، ومن عقائد الهندوسية تناسخ الأرواح وقانون الجزاء (الكارما) ووحدة الوجود والانطلاق للاتحاد بالإله (ابراهما)[٢]، وتقديس البقرة ونهر الغانج[٣]، وحرق أجساد الموتى[٤]، وأكثر ما يقلق الهندوسي ويؤرقه هو تكرار المولد (تناسخ الأرواح) إذ يعاقب المذنب بعد الموت، للعودة إلى الحياة التعسة، المؤلمة ليحل في جسد آخر وبأسم آخر لينال عقابه انسجاماً مع قانون الجزاء (الكارما)[٥]، إلى أن يتطهر ويتخلص من تكرار المولد والعودة إلى الحياة مرة أخرى، ولكن تمر عشرات السنين ولا يتطهر، فإذا تخلص من تكرار المولد يصل إلى حالة الخلاص الأبدي (الموكسا)[٦] والانطلاقة نقيا، للاتحاد بالإله (ابراهما) وفي القرن الثاني قبل الميلاد أسس باتنجالي منهج اليوحا[٧]، وهي جهد منهجي روحي للوصول إلى الكمال من خلال التأمل العميق في قدرة الطاقات الروحية والعقلية والسيطرة التامة على الرغبات الدنيوية المخالفة لروح التطهير ومن ثم قهر النفس لأن «الذي يتغلب على نفسه فقد

(١) أديان الهند الكبرى/ د. أحمد شلبي، ص٤٨، معجم العلوم الاجتماعية/ ناتاليا بريموفا، توفيق سلوم، ص٢١٤.
(٢) م.س، ص٦١-٦٩.
(٣) عالم الأديان/ فوزي محمد، ص١٨٠-١٨١.
(٤) قاموس المذاهب والأديان/ د. حسين علي، ص٢٢٠.
(٥) المذاهب الكبرى في التاريخ/ البان ج ويد جيري، ص٥٣، الفكر الفلسفي الهندي/ د. سرفيالي رادا كرشنا، د. شارلز مور، ص٧٤.
(٦) م.س، ص٧٤.
(٧) م.س، ص٥٤٣.

تغلب على حواسه التي تقوده إلى الشر، لأن النفس أمارة بالسوء، والنفس لا تشبع ابداً، بل يزداد جشعها بعد أن تنال مشتهاها»[١]، إذ «لا خير في الجسد محل العاهات ووعاء لسائر الآلام، وهو سائر إلى الإنحلال»[٢]، ويجب تطهير النفس مما علق فيها من أدران الدنيا ورغبات الجسد، فصاحب اليوجا من يرى الخلق جميعاً بعين واحدة، ومن حكم الهندوس قولهم: «ما هي قيمة الجسد والأفراح والثروة والجاه والمُلك إن كان محتماً علينا أن نموت عاجلاً أم آجلاً، وأن الموت سيقضي على كل شيء»[٣]، وأعظم ما قدمته الهندوسية للعالم هو فكرها الفلسفي الضخم الذي لم يترك مفصلاً من مفاصل الحياة الروحية والأخلاقية إلا ذكرها وفسرها، ويكفي أنه قدم منهج اليوجا وممارس التمارين التأملية الروحية للانتصار على الرغبة وسلوك الجسد، والقيام بالواجب، وسيطرة التنفس، والتجرد من الحواس، والانتباه المركز، والتأمل والتركيز العقلي، وممارسة اللاعنف والصدق، والأمانة والعفة، وعدم قبول الهدايا من أحد، والتزام النقاء الباطني والخارجي، والقناعة والزهد لتستعيد الروح حالتها الحرة، النقية، الأبدية، وهذا معنى الحرية والإنعتاق من أثقال الجسد المثقل بالذنوب والرغبات والخلاص منه بممارسة (اليوجا)[٤]، لا شيء يعادل الحكمة في هذا العالم، والزاهد اليوجي «هو الذي تكتفي روحه بالحكمة والمعرفة، وهو من لا يتبدل ويكون سيد حواسه، وهو من يسيطر على ذاته، الذهب عنده يتساوى مع قطعة حجر»[٥]، واليوجا هي الإنفصال عن الألم

(١) أديان الهند الكبرى/ د. أحمد شلبي، ص٧٤.
(٢) م.س، ص٧٥.
(٣) م.س، ص٧٢.
(٤) الفكر الفلسفي الهندي/ د. سرفيالي رادا كرشنا د. شالز مور، ص٥٤٤.
(٥) م.س، ص١٨٤.

بممارسة اليوجا بالإرادة وبقلب لا يشوبه الظلام وبهجران كل الرغبات المولودة بدون استثناء من الأنانية، وبتقييد كل الحواس بالعقل[١]، والعاقل من اتعظ واتخذ العقل الواعي هادياً والقلب السليم سراجاً.

والعقيدة البوذية من العقائد التي ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد[٢]، التي أسسها (سيد هارتا) الذي كان من أسرة غنية، واسعة أرضاً وثراء، وقد أظهرها احتجاجاً على النظام الطبقي الهندوسي الجائر، الذي أساء إلى الإنسانية بجعل سكان الهند الأصليين آخر طبقة منبوذة وما عليها إلا خدمة الطبقات العليا الثلاث من رجال الدين (البراهمة) الآريين والمحاربين[٣]، والتجار والزراع من التورانيين، وفي يوم من الأيام تجاوز حدود أرض أبيه الواسعة ليرى فقراء الهند الأحياء، الموتى، وما هم عليه من البؤس والشقاء، وسوء الحال، فدهش وتألم مما رأى، وكانت صدمة قوية أيقظته من سباته الدنيوي فطلق الدنيا وجعلها خلفه ظهريا ليتخذ الزهد أسلوباً واعياً لحياة روحية سامية بعد تطهير نفسه وقهرها وترويضها لتكون صالحة، والتخلي عن رغباتها التي أثقلت جسده، وأخذ بالتقشف والجوع والجلوس تحت شجرة بعينها سنوات ليعرف سر الكون وحقيقته ومعضلات الوجود الإنساني، فرافقه خمسة من رهبان الهنود[٤]، وإذ هو: بوذا، أي: المستنير العارف، المعتقد بتناسخ الأرواح إذ على الميت الفاسد العودة إلى الأرض لينال جزاءه بتكرار المولد بجسد آخر وآخر حتى يطهر ويتخلص من جميع أعماله السيئة السابقة لينال الخلاص الأبدي من عودة الجسد إلى

(١) م.س، ص١٨٦.
(٢) معجم العلوم الاجتماعية/ ناتاليا بريموفا، توفيق سلوم، ص١٢٨.
(٣) أديان الهند الكبرى/ د. أحمد شلبي، ص١٤٠، ١٤٤.
(٤) م.س، ص١٥٧.

الأرض للوصول إلى حالة (النرفانا)[١]، والاتحاد بالوحدة الشاملة، وسميت الشجرة التي جلس تحتها سبع سنوات بالشجرة المقدسة[٢]، إذ أحس برغبة شديدة للجلوس تحتها متأملاً لسنوات طوال، حتى تم له الكشف والاشراقة الروحية الأولى حين قال: «سمعت صوتاً من داخلي يقول بكل جلاء وقوة: نعم، في الكون حق، أيها الناسك، هنالك حق لا ريب فيه، جاهد نفسك اليوم لتناله»[٣]، ثم قال بعد ذلك: «لن أقوم من مكاني حتى أعرف الحق الذي أنشده فينجيني»[٤]، ثم قال: «لما أدركت هذا تحررت من الهوى، تحررت من شرور الكون الأرضي، تحررت من شرور الخطأ، تحررت من شرور الجهل، ... وشعور عدم تكرار المولد، لقد انتهى الصراط المقدس، لقد تمت الفريضة، فلن أرجع إلى هذه الدنيا رجعة أخرى، قد أبصرت هذا!!»[٥]، حتى بوذا كان خائفاً من العودة إلى الحياة الدنيا بعد الموت بالتناسخ، وأوصى باكتساب الفضائل ومكارم الأخلاق والحفاظ على الحياة، ونبذ العنف، والعيش بسلام ومحبة مع كل البشر، والزنى محرّم، وكذلك الخمور، واقتناء الذهب والمال، وحضور حفلات الرقص والغناء، ويجب قهر النفس لأنه «الشهوة علة الشرور والأوجاع والموت والتناسخ وإن العلم والمحبة هما العاملان الجوهريان في الكون...»[٦]، والألم ملازم للإنسان ولا يزول إلا بنبذ الشهوات[٧]، وأجمل ما قاله بوذا: «إن الحياة من الولادة إلى الموت لهيب وحريق

(١) الفكر الفلسفي الهندي/ د. سرفيالي رادا كرشنا، د. شارلز مور، ص١٨٥، ٣٧٤.
(٢) قاموس المذاهب والأديان/ د. حسين علي، ص٥٨.
(٣) أديان الهند الكبرى/ د. أحمد شلبي، ص١٤٢.
(٤) م.س، ص١٤٢.
(٥) م.س، ص١٤٣.
(٦) قاموس المذاهب والأديان/ د. حسين علي، ص٦١.
(٧) م.س: ص٦١.

فيها، نار الشهوة ونار الغضب، والعداء والهوى، ومن هم أولئك الخدم الذين يشعلون هذه النيران؟! والعواطف والحواس كلها، والقلب يتأثر بالأشياء المرغوبة، هؤلاء العبيد الست الذين يسعون لتنفيذ أوامر سيدهم - الجد - فيجمعون الحطب فتزداد النيران اشتعالاً»[١]، ووصايا وآراء بوذا كثيرة جداً، وتعدّ معجماً للعقيدة البوذية فلسفة وسلوكاً وعبادة وأخلاقاً.

والعقيدة الجينية من العقائد الهندية التي ظهرت بالقرن السادس قبل الميلاد[٢] أيضاً، محتجة، ثائرة على النظام الطبقي الجائر الهندوسي المسيء لسكان الهند الأصليين، إذ جعلهم الطبقة المنبوذة المطيعة الخادمة للطبقات العليا بأسم (الشودرا)[٣]، وقد أسس هذه العقيدة (مهافيرا)[٤]، الذي كان من عائلة ثرية جداً، تساعد الرهبان البؤساء بالطعام والشراب، فتأثر مهافيرا بأفكارهم وفلسفتهم وعبادتهم، وما أن توفى والده حتى ترك الدنيا والإمارة لأخيه ليجوب الأرض داعياً إلى الزهد والتخلي من أغلال الجسد المقيدة له، حتى يكاد يكون عارياً، منقطعاً عن طعام الدنيا الفانية، متأملاً، زاهداً، لتحرير النفس من رق الجسد، مادام الموت مترصداً لكل حي، فانضم إليه الكثير من الرهبان، ثم نذر الصمت أثنى عشر عاماً[٥]، واعتقد بتناسخ الأرواح وتكرار المولد ولا يتم الخلاص من ذلك إلا بانفصال الروح عن الجسد الأرضي المادي، والخضوع لقانون الجزاء (الكارما)[٦]، فالمسي يعاقب بتكرار المولد والعودة إلى الدنيا حتى يتطهر،

(١) أديان الهند الكبرى/ د. أحمد شلبي، ص١٥٨.
(٢) الفكر الفلسفي الهندي/ د. سرفيالي رادا كرشنا، د. شارلز مور، ص٣٢٥.
(٣) عالم الأديان/ فوزي محمد، ص١٨٥.
(٤) الفكر الفلسفي الهندي/ د. سرفيالي رادا كرشنا، د. شارلز مور، ص٣٢٥.
(٥) قاموس المذاهب والأديان/ د. حسين علي، ص٧٥.
(٦) عالم الأديان/ فوزي محمد، ص١٩٦.

والصالح يكافأ بعدم تكرار المولد المؤلم جداً المرعب لكل جيني، وقد أطلق اتباعه عليه اسم جينا: أي القاهر، العظيم[١]، ومن أراد النجاة الأبدي أن يلتزم بهذه الجواهر: الإيمان الصحيح، اللاعنف (الأهميا) قول الصدق، عدم السرقة، والالتزام بالأمور الدينية»[٢]، والجينية أول من جعلت اللاعنف قاعدة للحياة[٣]، والأرواح جواهر خالدة، ويكافأ الإنسان على أعماله الصالحة، ويعاقب الفاسد على فساده وخطاياه، ويمكن الوصول إلى الخلود بالسعي الجاد وتحرير الجسد من رق الشهوات والرغبات الدنيوية، وأقيمت المعابد الجينية في كل الهند خاصة بجنوبها[٤]، وتوفى مهافيرا سنة ٥٢٧ ق.م، وهو في السبعين من عمره[٥].

أما العقيدة الطاوية فهي من العقائد الصينية الإنسانية النزعة، فقد ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد أيضاً[٦]، وقد أسسها (لاو- تسو) الذي كان ذا منصب إداري كبير في القصر الامبراطوري لكنه تخلى عنه وعن الدنيا وزخارفها منصرفاً للتأمل والبحث عن حقيقة الوجود فوجدها في الطاو، إذ هو المنهج والطريق والمبدأ المولد للكون، والمنظم له، ولا يصل إليه إلا من تبعه وكان مثالاً للكمال الخلقي ومن اتحد به نال السعادة الأبدية[٧]، والطاو أهم مفاهيم الفلسفة الصينية[٨]، والمثل الأعلى عندهم

(١) م.س، ص١٩٦.
(٢) الفكر الفلسفي الهندي/ د. سرفيالي رادا كرشنا، د. شارلز مور، ص٣٢٧.
(٣) م.س، ص٣٢٧.
(٤) عالم الأديان/ فوزي محمد، ص١٩٦.
(٥) م.س، ص١٩٦.
(٦) عالم الأديان/ فوزي محمد، ص٢٤٣.
(٧) م.س، ص٢٤٣، معجم العلوم الاجتماعية/ ناتاليا بريموفا، توفيق سلوم، ص١٧٠.
(٨) م.س، ص١٧٠.

هو «التحرر من الشهوة والتجربة الحسية وذلك بالتأمل الصوفي والمعرفة الصحيحة، معرفة القانون الأعظم، والتصوف هو الطريق الوحيد للوصول إلى المعرفة»[١]، وعلى الإنسان أن يتجنب العنف ويكون بسيطاً في معيشته، وأن يتجنب الحصول على المال أو السلطان وعليه بإصلاح نفسه قبل إصلاح العالم، واعتقدوا بتناسخ الأرواح وتكرار المولد لمن أساء وفسد، وبوجود قوى شريرة تنتقم من الأشرار، وأخرى خيّرة تكافأ الأخيار[٢]، ويعتقدون أن الوباء والبلاء من عمل الشياطين السود، ورفضوا استخدام القوة، لأن ما تحصل عليه القوة يزول بسرعة، وليست من الطاو[٣]، ومن صفاتهم الهدوء والرقة وحب السلام وعدم الاكتراث والنظر إلى الذهب واللائى أبدا، أنها مجرد معادن لا تسعد حكيماً عاقلاً، وبالزهد والحكمة تنال السعادة والسكينة والرضا، ويجب على الحكيم الطاوي أن «يمحو كل رغبة في صدره بحيث لا تبقى لديه الرغبة في الرغبة»[٤]، وارتكزت فلسفتهم على أساس متين من التواضع والطمأنينة وهذا ما يريده الطاو، إذ هو الأبدي اللامرئي، المستتر وراء الشيء العارض المرئي[٥]، وكانت الطاوية تؤكد على السلام الداخلي، وتحرر الفرد من كل الضغوط والمؤثرات الخارجية[٦]، ونصوصهم المقدسة هي: إحدى وثمانون مقطوعة شعرية لفيلسوفهم لاو- تسو[٧]، فالطاوية طريق حياة تهدف لتحقيق السلام والمحبة وسيادة الحكمة والنزاهة، إذ الطاو هو القوة الكامنة في

(١) عالم الأديان/ فوزي محمد، ص٢٤٤.
(٢) م.س، ص٢٤٤.
(٣) المذاهب الكبرى التأريخ/ البان ج، ويد جيري، ص٢٠.
(٤) م.س، ص٢٣.
(٥) م.س، ص٢٠-٢١.
(٦) م.س، ص١٥.
(٧) قاموس المذاهب والأديان/ د. حسين علي، ص١٤٨.

طبيعة الأشياء جميعاً، وهو المبدأ الأخلاقي الذي يحكم سلوك الإنسان الطيب، ومراحل التصوف عندهم هي: اتخاذ الخلوات والعزلة والتأمل والانقطاع عن العالم الخارجي تماماً، ثم مرحلة الاشراق النوراني ورؤية الحقائق المجردة، ثم إذا ارتقى الطاوي روحياً وأخلاقياً وفكراً فسيتم الاتحاد بينه وبين الطاو العظيم، وتلك هي السعادة الكبرى[1]، وأعظم ما في فلسفتهم هو الروح الإنسانية وحب الخير والسلام للعالم أجمع.

ومن العقائد الصينية الكونفوشيوسية: وهي فلسفة ومذهب تربوي ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد أيضاً[2]، وهي المدرسة الأولى في ترتيب المدارس الفكرية الصينية القديمة، أسسها حكيم الصين كونفوشيوس، وتقلد عدداً من المناصب السياسية لكنه تركها ليتفرغ لتدريس الأخلاق واكتساب الفضائل والحكمة، لأن مذهبه فلسفي أخلاقي ديني وله خمسة كتب[3]، حتى ارتقى ليكون مثالاً يُقتدى بتعاليمه ووصاياه وآرائه السديدة، وكان موقفه من التأريخ أخلاقياً مؤثراً الطيبة والرضا والسكينة والحكمة على غيرها من المقومات العقلية والأخلاقية، إذ كل طيب حكيم، ودود، وقال: «إذا كنت نرغب حقيقة في التوصل إلى الطيبة فلسوف تجدها في متناول اليد»[4]، فالطيبون: «سعداء أمّا السيئون فيردون إلى مصير بائس، ومن يكن طيباً لا يمكن أن

(١) عالم الأديان/ فوزي محمد، ص٢٤٥.

(٢) موسوعة الفلسفة والفلاسفة/ د. عبد المنعم الحفني: ٢/ ١١٧٧، معجم العلوم الاجتماعية/ ناتاليا بريموفا، توفيق سلوم، ص٢٥٠، المذاهب الكبرى في التأريخ/ البان ج ويد جيري، ص٢٤.

(٣) وهذه هي الكتب الخمسة: كتاب التغييرات، والأحداث التأريخية والمراسم وديوان الغزل، وكتاب الربيع والخريف، انظر: ص١٧١ ، ١٧٢ من قاموس المذاهب والأديان/ د. حسين علي.

(٤) المذاهب الكبرى في التأريخ/ البان ج ويد جيري، ص٢٦.

يكون أبداً تعيسا»[١]، وآمن بوجود الهين: إله في الأرض وإله في السماء، والسموات «تثيب أو تعاقب الأفراد وفق تصرفاتهم»[٢]، ثم قال: «لو أنني ارتكبت ما لا يليق لغضبت عليَّ السماء[٣] والقوة الأخلاقية» «لا ترضى عن نفسها معزولة، إنها تجد لنفسها على الدوام خلانا»[٤]، ومن وصاياه أن يكون الإنسان ظريفاً، بشوشاً، وقوراً، صادقاً، حكيماً، مخلصاً، عادلاً، طيب القلب، سليم النوايا، فالكامل «الخلق يطلب الفضيلة والرجل الناقص الخلق يطلب اللذة»[٥]، وقد اعتقد كونفوشيوس والذي معناه: الأستاذ المعلم، بوجود الملائكة وقدسها، وخلود الروح، والإيمان بالقضاء والقدر، وإن للشمس إلهاً وللقمر وللكواكب آلهة أيضاً[٦]، وكان يحلم ببناء مدينة فاضلة، وأكد مراراً على سياسة اللاعنف، وإفشاء السلام والمحبة بين البشر، وطاعة الوالدين، واحترام الأخوة والصداقة، ووصاياه وحكمه كثيرة جداً، وقد التزم بها شعب الصين جميعاً.

ومن أوائل الفلاسفة اليونان الذين تكلموا عن النفس هو «فيثاغورس»[٧]، الذي آمن بخلود الروح وقال: «كل المخلوقات أقارب وطالما أن الكون نفسه مخلوق يتنفس والجسد فان والروح خالدة وعلى البشر أن يعدوا أرواحهم ويطهروها تمهيداً لعودتها

(١) م.س، ص٢٩.
(٢) م.س، ص٣٠.
(٣) عالم الأديان/ فوزي محمد، ص٢٣٤.
(٤) المذاهب الكبرى في التأريخ/ البان ج ويد جيري، ص٢٧.
(٥) قاموس المذاهب والأديان/ د. حسين علي، ص١٧٢.
(٦) م.س، ص١٧٠.
(٧) توفى سنة ٤٩٧ ق.م، موسوعة الفلسفة والفلاسفة/ د. عبد المنعم الحفني: ٢/ ١٠٥٣.

إلى الروح الكلية: التي هي جزء منها»[١]، أما سقراط[٢] فأكثر الفلاسفة تأثيراً في الفكر اليوناني والقائل: «أعرف نفسك»[٣] لأن: «من يعلم نفسه يعلم خيرها، ويعمل بمقتضاه، والشرير جاهل بنفسه وبالناس لا يعرف خيرهما»[٤]، وأصالته الحقيقية في مفهوم النفس الجديد، قوله: «فبالتأمل والاستبطان يدرك الإنسان أبعاد شخصيته ويحقق لذاته التفوق بسيطرة النفس على شهوة البدن واتجاهات العقل، ولا تقوم سعادة الإنسان على الجاه أو السلطان لكنها تقوم بالعلم بما ينبغي عمله، والحكمة كمال العمل القائم على كمال العلم، فالفضيلة علم والجهل رذيلة»[٥]، أما (إفلاطون)[٦] فقد عرف بنظرية المثل وبمدينته الفاضلة (جمهورية إفلاطون)[٧] وهو الذي أسس أول أكاديمية في أثينا سنة ٣٨٧ ق.م[٨]، لتدريس العلوم الفلسفية وهو القائل: «والنفس في علاقتها بالجسد في توتر دائم، لأن الجسد بمثابة القيد الذي يحد من انطلاقها إلى عالم المثل وأن تكون لها حياتها الحقة، والزهد خلاص النفس من سيطرة الجسد والموت يحررها كلية، ومن أجل ذلك يحاول الفيلسوف في الحياة أن يخلص نفسه ما استطاع من حاجات الجسد وأن يعيش في روحانية»[٩]، وآراؤه كثيرة ووصاياه مؤثرة وهو الأقرب لعلماء المسلمين

(١) م.س: ٢/ ١٠٥٤.
(٢) توفى سنة ٣٨٩ ق.م، م.س: ١/ ٧٣٦.
(٣) م.س: ١/ ٧٣٦.
(٤) م.س: ١/ ٧٣٧.
(٥) م.س: ١/ ٧٣٧.
(٦) توفى سنة: ٣٤٧ ق.م، الفلسفة اليونانية/ يوسف كرم، ص٦٢.
(٧) جمهورية أفلاطون/ ترجمة حنا خبار، ص٥.
(٨) الفلسفة اليونانية/ يوسف كرم، ص٦٣.
(٩) موسوعة الفلسفة والفلاسفة/ د. عبد المنعم الحفني: ١/ ١٦١.

لإيمانه بخلود الروح ووجود عالم آخر أفضل من هذا العالم الفاني ألا وهو عالم المثل النوراني، أما «ديوجين الكلبي»[1] فكان ذا نزعة إنسانية وهو القائل «العالم موطني»[2]، متعالياً على التعصب للعرق أو الجنس أو القومية، وإذا أراد الإنسان أن يكون ملكاً فعليه أن يحرر نفسه من شهواتها»[3]، ومن غرائبه أنه كان يحمل بيده مصباحاً وقت الظهيرة ويتعجب الناس مما يفعل فيسأله الناس: عم تبحث يا دوجين فيقول: البحث عن إنسان[4]!! ويقصد رجلاً عاقلاً حكيماً، وكان ينشد الفضيلة والأخلاق الكريمة، ويطول الحديث لو ذكر كل آراء فلاسفة اليونان جميعاً.

الفصل الثاني

العصامية: فروسية من طراز آخر

عرفت العصامية أنها التحدي الفردي لمواجهة الحياة الصعبة وتجاوز ما يعيق العصامي من تحقيق المراد حتى لو كان بعيداً عن نظر المتراخين، لكنه قريب لأصحاب المواهب الخلاقة والإرادة القوية والعزيمة الصلبة، والذهنية المتوقدة فطنة وذكاء واستبصاراً واستشرافا للمستقبل، ولا يتم ذلك إلا بوجود عقلانية راقية، وقلب جسور ونفس تواقة للوصول إلى أعلى المراتب والمناصب، فالعصامي من لم يشرح للفتور والرضا بالميسور صدرا، ولم يتكل على تراث آبائه وأجداده، بل يعتمد على

(١) المتوفى سنة ٣٢٧ ق.م، م.س: ١/ ٦١٢.
(٢) م.س: ١/ ٦١٢.
(٣) م.س: ١/ ٦١٢.
(٤) م.س: ١/ ٦١٢.

قدراته الذاتية، وعقلانيته المتسامية للتدرج من أدنى الأعمال إلى أعلاها شأناً وأجلها مقاماً، إذ هي الترقي والمصابرة لمنازلة الأحداث الجسام وبذل المزيد من الجهد والسعي الدؤوب الجاد لتحقيق المراد، إنها فروسية من طراز آخر، إذ ليس كل من امتطى فرساً فارساً، وهذا ما كان متجسداً في عصام بن شهير[1]، حاجب ملك الحيرة النعمان بن المنذر[2]، الذي اعتمد على نفسه وحسن تدبيره ليصل إلى هذا المنصب الخطير، وحين أراد الشاعر النابغة الذبياني في الدخول على الملك منعه وحجبه عصام من الدخول فقال النابغة:

إني لا ألومك في دخول ولكن ما وراءك يا عصامُ[3]

ومما زاد عصام شهرة ليضرب المثل في العصامية قول النابغة فيه:

نفس عصام سوّدت عصاما وعلمته الكرّ والإقداما

وجعلته ملكا هماما[4]

ويضرب المثل بعصامية عصام كل من له نباهة الرجل الذي لا يعتمد على أرث قديم مكتسب وتسميه العرب بالخارجي لأنه خرج بنفسه دون أولية له، ومن الأمثال السائرة: «كن عصامياً ولا تك عظامياً»[5]، أي الأجدر ألا تفتخر بأجدادك وآبائك الذين صاروا عظاماً، بل الأولى والأفضل الافتخار بالنفس، فإنما أصل الفتى ما قد حصل فعلا منه، لا من غيره، ولكن لا يجوز اقتصار العصامية على فرد واحد تجاوز

(١) مجمع الأمثال/ لأبي الفضل الميداني: ٢/ ٣٣١.
(٢) هو ابن المنذر بن النعمان، آخر ملوك الحيرة/ سرح العيون/ تأليف ابن نباتة المصري، ص٣٦٨.
(٣) مجمع الأمثال/ لأبي الفضل الميداني: ٢/ ٣٣١.
(٤) جمهرة أشعار العرب/ لأبي زيد القرشي، ص٨٦.
(٥) مجمع الأمثال/ لأبي الفضل الميداني: ٢/ ٣٣١، والإنسان العصامي الفطامي: شريف النفس والمنصب، أساس البلاغة/ جار الله الزمخشري، ص٤٢٣.

تراثه التليد وابتنى مجداً حديثاً طريفاً، قال جرير:

وما للئيم من حسب حديث وما للئيم من حسب قديم[1]

لا تقتصر العصامية على من ضرب به المثل، لاختلاف الآراء والعقول والإرادات وأساليب الوصول والارتقاء لأعلى المراتب، وحفظ النفس من ذل السؤال وضيق اليد وعسر الزمن، إلى سماحة اليد وعز العطاء والإيثار وهذا ما قام به أمير الصعاليك عروة بن الورد العبسي وفارسهم الذي تجاوز بؤسه وشقائه بنبالة نفسه، وإيثاره حتى عرف بمانع الضيم[2]، وهي صفة جليلة لم يحصل عليها إلا أفراد قلائل، وأحبه القاصي والداني لقوله الجميل الدال على اشتراكيته:

إني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحدُ[3]

أتهزأ مني إن سمنتَ وأن ترى بوجهي شحوب الحق، والحق جاهدُ[4]

أقسّم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء باردُ[5]

فهو أول من أشار إلى الروح الاشتراكية، إذ يود مشاركة الآخرين طعامه، أما البخيل فلا يأكل إلا وحده ضنا بما لديه من وفرة طعام، وما هزل عروة وشحب وجهه إلا بسبب آلامه ورؤيته بؤس وشقاء الآخرين، وجعل ما يمتلكه مشاعاً بين الناس، وهو الصبور على شدة البرد والعزيز من آثر غيره على نفسه ولو كان به خصاصة، ومما

(١) ديوانه/ إيليا حاوي، ص٦٣٣.

(٢) كتاب الأغاني/ أبو الفرج الأصبهاني: ١٤/ ١.

(٣) العواف والعوافة: ما يحصل عليه المرء ليلاً، كتاب العين/ الخليل بن أحمد الفراهيدي، مادة: عوف.

(٤) الحق جاهد: ليس من السهل تحقيقه إلا بالسعي الجاد وبذل المجهود.

(٥) ديوانه/ أسماء أبو بكر محمد، ص٣٩، أحسو: أشرب الماء بملئ فمي كما يحسو الطائر الماء. قراح الماء: الخالص ولا يخالطه لبن أو غيره.

يؤكد عصاميته هو تفرده، مشمّرا عن ساعديه، مجدّا في سعيه، ملتمساً ما يحافظ على كرامته، وعزة نفسه بيسار مقبول أو يموت فيُعذرا إن فشل في تحقيق ما يصبو عليه، إذ رفض كل ما يذل ويئس إلى كرامته، وهذا ما جاء في قوله:

وما طالب الحاجات من كل وجهة ... من الناس إلا من أجدّ وشمّرا
فسر في بلاد الله والتمس الغنى ... تعيش ذا يسار أو تموت مُتعذرا
ولا ترض من عيش بدون ولا تنم ... وكيف ينام الليل من كان مُعسرا؟![1]

وقد تحلى بكل قيم الفروسية والأخلاق الكريمة، وهو القائل:

فلا أترك الإخوان ما عشت للردى ... كما أن لا يترك الماءَ شاربُه
وإن جارتي ألوت رياح بيتها ... تغافلت حتى يستر البيت جانبهُ[2]

لهذا، فعصامية عروة تحققت بفروسية فارس، ورجل كريم، وإنسان من طراز آخر، وقد عرف الصعاليك بعزة نفوسهم، وشدة بأسهم، وصبرهم على المرارات، وقوة شوكتهم عند القتال، ولكنهم لا يصبرون على ضيم أبداً، بل يميتون الجوع بعدم الالتفات إليه، وهذا ما جاء في قوله الشنفرى[3]:

أديم سطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحاً وأذهلُ
وأستف ترب الأرض كيلا يرى له ... علي من الطّول امرؤ متطوّلُ[4]

(١) م.س، ص٧٧، الحماسة البصرية/ صدر الدين البصري: ١/ ١١٠.
(٢) م.س، ص٤٨ ، ألوت: أزاحت.
(٣) هو ثابت بن أوس الأزدي، الملقب بالشنفري، جاهلي، من العدائيين، صاحب (لامية العرب)، الأعلام/ خير الدين الزركلي: ٥/ ٢٥٨، معجم الشعراء الجاهليين/ د. عزيزة فوال، ص١٨٤، لباب الالباب/ لأبي منصور الثعالبي، ص١٤٧.
(٤) أستف: التهم التراب.

ولولا اجتناب الذأم لم يُلف مشرب يعاش به إلا لدي ومأكلُ[1]
ولكن نفساً مرّة لا تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحوّلُ[2]

وإن كان فاتكاً صعلوكاً لكنه شريف النفس، عزيز الجانب، عفيف اليد، وهذا ما جاء في قوله:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميلُ[3]
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزلُ[4]
لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ[5]
إذا مُدّت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجلُ[6]

رغم صعلكتهم لكن المؤرخين والنقاد أنصفوهم لما عرفوا به من قيم أخلاقية وفروسية نادرة وعصامية تستحق الذكر والإنصاف لكنها الظروف القاسية والظلم الاجتماعي التي أجبرتهم على الاغتراب ولكن لم تؤثر على ما كانوا عليه من إباء وصبر وإيثار وكرامة وعزة نفس، ثم نلتقي بعصامية تحققت بشاعر عفيف فارس المبتلى بصبغة جلده الذي ليس له يد بوجودها، وهذا ما قاله بحسن تعليل بلاغي مقنع ويتفق مع واقع حال مرير:

لئن أكُ أسودا فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء!!

---

(١) الذأم: ما يعيب.
(٢) لامية العرب/ مطبعة ودار مكتبة الحياة، ص٧٤.
(٣) مطيكم: ما تركبوها. ومتاعكم عند الرحيل.
(٤) منأى: معزل بعيد. القلى: النبض والترك.
(٥) راهبا: خائفاً
(٦) م.س، ص٦٩-٧٠.

ولكن تبعد الفحشاء عني كبعد الأرض عن جوّ السماء[1]

ولقد أكد عنترة أن من أسباب عصاميته هو تجاوز عقدة اللون حتى اتخذه نسباً بديلاً له عما يفخر به غيره من الشعراء، ويعرف به عند مقارعة الفرسان:

لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسب يوم النزال إذا ما فاتني النسبُ[2]

ثم اتخذ الشمائل الكريمة، وقيم البطولة، والإجارة، ورباطة الجأش سلماً لارتقاء المعالي، متجاوزاً صبغته التي اصطبغ بها خلقاً الهياً، فبالفروسية وشرفها تتحقق عصامية من أراد القدح المعلى في ميدان المكرمات، وهذا ما قاله:

إذا ما لقيت الموت عممت رأسه بسيف على شرب الدما يتجوهرُ
سوادي بياض حين تبدو شمائلي وفعلي على الأنساب يزهو ويفخرُ
ألا فليعش جاري عزيزاً وينثني عدوي ذليلاً نادماً، يتحسّرُ[3]

لقد عانى كثيراً من الظلم وغياب العدالة والمساواة وخاصة الذين يعيبون عليه سواد جلده، فأسكتهم بما هو عليه من الخلق الكريم ومكارم القيم الشريفة، والشجاعة التي عرف بها، ليقول:

تعيرني العدا بسواد جلديّ وبيض خصائلي تمحو السوادا
سلي يا عبلَ قومك عن فعالي ومن حضر الوقيعة والطّرادا
وخضت بمهجتي بحر المنايا ونار الحبّ تتّقد إتقادا
ولو صارمي وسنان رمحي لما رفعت بنو عبس عمادا[4]

(١) ديوان عنترة/ دار صادر، ص٨٨.
(٢) م.س، ص٩٢.
(٣) م.س، ص١٤٦.
(٤) م.س، ص١٢٤.

ومن عصاميته تساميه وتجاوزه عمن ينتقص منه ليثير حفيظته ويلحق الأذى به، ويؤلمه، وما أكثر من فقدوا إنسانيتهم ولم يعرفوا للياقة أدباً، إذ هم ضعاف نفوس وسفلة قوم فلابد من إفحامهم وردهم بعلو همته وشرفه فعاله، إذ لا يبالي بمن يود النيل من كرامته وهو أشد من الحديد صلابة وقوة وهو العصي على الصدأ، وخاب من حاول التأثير عليه نفسياً، وهذا هو رده عليهم:

خلقت من الحديد أشدّ قلباً ... وقد بلي الحديد وما بليتُ[1]

وقوله أيضاً:

وذلّ الدهر لما أن رآني ... ألاقي كلّ نائبة بصدري

وما عاب الزمان علي لوني ... ولا حطّ السواد رفيع قدري[2]

وقوله كذلك:

ومن قال إني أسود ليعيبني ... أريه بفعلي أنه أكذب الناس[3]

ولم يفتخر عنترة إلا بأدوات فروسيته وما يتحلى به من أخلاق نبيلة، ولم ينظر إلى نسب وتراث مكتسب قديم، بل اعتمد على ساعديه وظهيراه: السيف والرمح والجياد الكريمة العتاق، وهذا ما جاء في قوله:

إذا افتخر الجبان ببذل مالٍ ... ففخري بالمضمرة العتاق[4]

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه قوله:

وسيفي كان في الهيجا طبيبا ... يداوي رأس من يشكو الصّداعا

(١) ديوان عنترة ومعلقته/ تحقيق الأستاذ خليل شرف الدين، ص٤٢.

(٢) ديوان عنترة/ دار صادر، ص٤٥.

(٣) م.س، ص١٦٠.

(٤) م.س، ص١٧٧، المضمرة العتاق: الجياد المهيأة للقتال، الكريمة الأصل.

أنا العبد الذي خبرت عنه وقد عاينتني فدع السماعا[1]

وليس من رأى كمن سمعا، فقد أثبت أنه أكثر الشجعان شهرة في التأريخ العربي وهذا ما قاله:

وليس سباع البر مثل ضباعه ولا كلّ من خاص العجاجة غترُ
دعوني أجدّ السعي في طلب العلا فأدرك سؤلي أو أموتَ فأعذرُ[2]

وكان ذا همة عالية، صبورا، جريئاً عند مناضلة ومنازلة الأعداء، تعالى على الأعراق والأجناس، إذ هو ليس ممن يفتخر بمآثر أجداده القديمة، بل سيكسب مجداً طارفاً، محدثاً، واجتناب ما سهل نيله ورخص ثمنه، وهذا ما ورد في قوله:

ووارث مجد لم ينله، وما جد أصاب المجد طارف غير متلد[3]
سأكسب مجداً أو تقوم نوائح علي بليل نادباتي وعوّدي[4]

لطالما قاسى ظلماً اجتماعياً، لغياب العدالة الاجتماعية، وفساد الفطر المريضة التي تنال منه وتعيبه لسواده لهذا كان يبحث عن المقامات الجليلة ومن المعاش ما هو نفيس وكريم ولم يك يرضى إلا بما هو سام ونبيل كسمو نفسه وصفو كرامته ليقول:

فلا ترض بمنقصة وذلّ وتقنع بالقليل من الحطام
فعيشك تحت ظل العزّ يوما ولا تحت المذلة ألفَ عامِ[5]

أنها عصامية إنسان حر بقرارة نفسه، فريدة من نوعها وأكدها ببطولته ومواقفه المشرفة، ويرفض التراث المكتسب، ما دام ظهيراه: السيف والرمح وهذا ما جاء في

(١) ديوان عنترة/ دار صادر، ص١٧١.
(٢) ديوان عنترة ومطقته/ تحقيق الأستاذ خليل شرف الدين: ١٩٤-١٩٥.
(٣) الطارف: الحديث، المقلد: القديم.
(٤) جمهرة أشعار العرب/ لأبي زيد القرشي، ص٢٣٤.
(٥) ديوان عنترة/ دار صادر، ص٢١٠.

قوله:

دعوني أوفي السيف في الحرب حقّه وأشرب من كأس المنية صافيا
ومن قال إني سيّد وابن سيّد فسيفي وهذا الرمح عمّي وخاليا[1]

وكذلك رد على من أساء إلى إنسانيته ولم ينصف شجاعته وما هو عليه من الفروسية واخلاقها الشريفة من عفة وجرأة وكرم وصبر وإباء ليقول:

لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسب يوم النزال إذا ما فاتني النسبُ[2]

ومن ثم يعلن احتجاجه على من ظلموه ولم ينصفوه ويعترفوا بحريته التي كانت بمنزلة الروح من الجسد ولطالما ناضل من أجلها سنوات طوالا، وقاسي من العبودية ما قاسى ومن يعيبونه من طرف خفي، قسوة لم يعرف التأريخ لها مثيلاً، رغم شاعريته البديعة، إذ كان بارعاً في اختيار المفردات الحسنة والمعاني الراقية، والصياغة المدهشة، وكان ذا خيال خصب رغم البداوة وشظف العيش، وعدائية الصحراء، ورقياً ذا قلب سليم ويد سمحة وعفة نادرة، وهو القائل:

أغشى فتاة الحي عند حليلها وإذا غزا في الجيش لا أغشاها[3]
وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها[4]

وقوله أيضاً:

ولقد أبيت على الطوّى وأظله حتى أنال به كريم المأكلِ[5]

(١) م.س، ص٢٤١.
(٢) م.س، ص٩٢.
(٣) حليلها: زوجها، أغشى: أدخل.
(٤) ديوان عنترة/ دار صادر، ص٧٦.
(٥) م.س، ص٥٧.

حتى قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين سمع هذا البيت: «ما وصف لي أعرابي، جاهلي قط، فأحببت أن أراه إلا عنترة!!»[1].

ومن جميل ما قال:

يقول لك الطبيب دواك عندي إذا ما جسّ نبضك والذّراعا
ولو عرف الطبيب دواء داءٍ يردّ الموت ما قاسى النزّاعا[2]

ويستخدم حسن التعليل البلاغي لإثبات ما يقول، برهاناً ودليلاً، وما ألطف ما قال ثائراً، مدافعاً عن حريته وانسانيته وحقه في العيش الكريم، بقوله:

سيذكر في قومي إذا الخليل أقبلت وفي الليلة الظّلماء يُفتقد البدر!!
يعيبون لوني في السواد جهالةً ولولا سواد الليل ما طلع الفجرُ[3]

ثم أراد إيقاظ النفوس المعادية من سباتها، الراضية بالميسور المذل من المعاش ولم تلتفت إلى مراقي العز العزيزة التي لا تنال إلا بالإرادة الصلبة والعزيمة التي لا تلين وتنكسر، وهذا ما كان عليه هذا الشاعر العفيف، المجاهد، المناضل، صاحب الفطرة السليمة ليكون نداءه شعاراً لكل حر شريف، وذي نفس أبية على الضيم، رافضة كل ما يذل النفس ويهينها:

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظلِ
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعزّ أطيب منزلِ[4]

(١) ديوان عنترة ومعلقته/ تحقيق الأستاذ خليل شرف الدين، ص١٠.
(٢) م.س، ص٢١٠، النزاع: سكرات الموت.
(٣) ديوان عنترة/ دار صادر، ص١٥٥.
(٤) م.س، ص١٩٨.

وآخر ما نستشهد به قوله الراقي المعبر عن عواطفه الملتهبة وسمو أخلاقه:

وإن كان لوني أسود فخصائلي بياض ومن كفي يُستنزل القطرُ

محوت بذكري في الورى ذكر من مضى وسدت فلا زيدُ يقالُ ولا عمروُ[1]

وقد تأكد لنا مما ذكرناه أن للعصامية أساليب شتى وقدرات ومواهب مختلفة ولا تقتصر على آحاد من الناس، ولكل عصامي أسلوبه الخاص في الترقي وتجاوز الأدنى من الأعمال والوصول إلى أعلاها شأناً وأسماها رتبة ومقاماً، وسنذكر عصامية من طراز آخر لم يلتفت إليها الباحثون والمؤرخون ألا وهي عصامية سلطان مصر والشام كافور الأخشيدي.

كان كافور الأخشيدي[2] عبداً من العبيد فاشتراه سلطان مصر محمد الإخشيد بثمانية عشر دينار[3]، ثم نسب إليه فسمي كافور الإخشيدي، وبسبب فطنته وذكائه وحسن تدبير واطلاعه ومعرفته الواسعة في سياسة الملوك وسيرته الحسنة، وحكمة نادرة في ضبط أمور المملكة، وملم بآداب الحديث واتقانه أساليب التعامل الراقي مع الرعية وحفظ المودة بين العام والخاص، إذ أنزل الناس منازلهم وكلمهم على قدر عقولهم ومقاماتهم، والخبير بمقامات الرجال أعجب به السلطان أيّما إعجاب فأوكل إليه تربية وتعليم ولديه، إذ هو الوصي عليهما، وما أن توفى السلطان محمد الأخشيد حتى تولى السلطنة ولده انجور ثم بعده أخوه عليّ، حتى ارتقى منصب الإمارة لمدة اثنتى وعشرين سنة ثم استقل ليكون سلطان الديار المصرية والشام سنة ٣٥٥ه[4]، ونظراً

(١) م.س، ص١٥٥.

(٢) الأعلام/ خير الدين الزركلي: ٦/ ٦٨، وفيات الأعيان/ ابن خلكان: ٤/ ٩٩.

(٣) م.س: ٤/ ١٠٠، شذرات الذهب/ ابن العماد الحنبلي: ٣/ ٢١-٢٢.

(٤) الأعلام/ خير الدين الزركلي: ٦/ ٦٨.

لصلاحه وورعه وعدله فقد دعي له على منابر مكة ومصر والشام والتقى الشاعر المتنبي به فأصبح السلطان أحد ممدوحيه وهو القائل فيه:

يدبر الأمر من مصر إلى عدن ... إلى العراق فأرض الروم والنَّوبِ[1]

كأن كل سؤال في مسامعه ... قميص يوسف في أجفان يعقوبِ

إلى تهب الدؤلات راحته ... ولا يمنّ على آثار موهوبِ[2]

ثم توفى بالقاهرة سنة ٣٥٧هـ[3]، أليس ما وصل إليه كافور عصامية نادرة، من عبد ليترقي ويعتلي السلطنة بجهده واعتماده على نفسه، إذ لا عشيرة له ولا قبيلة تعرف، ليصل إلى أعلى المراتب السياسية، الإدارية، وهذا ما يؤكد لنا أن العصامية لا تقتصر على فرد واحد لاختلاف أساليب الارتقاء وتحقيق المراد، فقد عرف عصام بقدرته الإدارية الفائقة، وعروة العبسي[4]، باشتراكيته وسماحة يده، وعنترة بفروسيته وأخلاقه وكافور الأخشيري بسياسته الحكيمة، والكل تجلت وتجسدت فيهم القيم الخلقية وفضائل النفس البشرية.

(١) لم يرد المتنبي أن هذه الأقطار داخلة في مملكته لكنه أراد أن سعة ملكه وسمعته تجاوزت أطراف مملكته.

(٢) شرح ديوان المتنبي/ وضعه عبد الرحمن البرقوقي: ١/ ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦.

(٣) اختلف في سنة وفاته فقيل سنة: ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧ه، والله أعلم/ وفيات الأعيان/ ابن خلكان: ٤/ ١٠٥.

(٤) قال الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي وكان معجباً بشعره: «من زعم حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد، ديوانه/ أسماء أبو بكر محمد، ص٣٩.

الفصل الثالث

المتنبي إنموذجاً !!

سبق وإن ذكرنا أن العصامية لا تقتصر على آحاد الناس وذلك لاختلاف الارادات والمواهب والقدرات الذاتية معنوياً ومادياً، ومن ثم لكل عصامي أسلوبه الخاص وأدواته لتجاوز العقبات وتحدي الصعاب بمفرده وعزيمته وبجهده الذاتي للتدرج من أدنى الأعمال إلى أرقاها وأسماها مقاماً دون الالتفات إلى تراث آبائه وأجداده من حسب ونسب، كقول الشاعر:

لا فقر أكبر من فقر بلا أدب ... ليس اليسار بجمع المال والنّشب[1]

وقال آخر:

كم من خسيس وضيع القدر ليس له ... في العزّ أصل ينمى إلى نسبِ

قد صار بالأدب المحمود ذا شرفٍ ... عالٍ وذا حسب محض وذا نسبِ[2]

وهذا ما يتفق وطموح المتنبي[3] لتخطي كل المعوقات ليكون ذا شأن سياسي والحصول على ولاية وأي منصب يليق بمكانته وعلو شأنه وهو الصدر في مجالس العلم والأدب والمشار إليه بالبنان المتفوق على شعراء عصره، نباهة، وذكاء، وإبداعاً واختراعاً للمعاني الراقية والمفردات الحسنة حتى قيل فيه وليس: «في العالم أشعر منه أبداً، وأما

(١) معجم الأدباء/ ياقوت الحموي: ١/ ٧٣.

(٢) م.س: ١/ ٧٤.

(٣) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، الكوفي، شاعر العرب بلا منازع ومثيل، له ديوان شعر، قتل سنة ٣٥٤ه قرب النعمانية، وفيات الأعيان/ ابن خلكان: ١/ ١٢٠-١٢٣، شذرات الذهب/ ابن العماد الحنبلي: ٣/ ١٤.

مثله فقليل»[1]، وكان «من أذكى الناس وأسرعهم حفظاً»[2]، ورغم فقره، وعسر يده، حتى عجز أن يشتري كتاباً، لكنه كان عالماً، مستوعباً أسرار العربية وغريبها وحوشيها، ذا فصاحة وبيان أدهش أرباب اللغة ونقاد الأدب بصياغته الشعرية، ومعانيها المثيرة للعقول وأهل الذوق الراقي، لجدتها وغرابتها، ولا غرابة حين يفتخر بموهبته الخلاقة وشعره الرصين أمام ممدوحه سيف الدولة الحمداني مطرزاً أبياته بالحكمة الرائعة:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظّلمُ
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صممُ
أنام ملُ جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ
فالخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ[3]

ولم يبقِ شيئاً للمدوح ليفتخر به، إذ نسبها إلى نفسه، بكل صراحة وجرأة قل نظيرها، وكان ذا خيال خصب، وعقلانية تفرق بين الغث والسمين، وبين ما رذل من الألفاظ وما حسن منها، إذ كان كالجوهري الصائغ الذي يختار لقلائده أكثر المعاني نفاسة وأجمل الأحجار الكريمة لونا وبريقاً، لتوضع في معارض الذوق ومحاسن الجمال، وهو القائل:

وأصبح شعري منهما في مكانه ... وفي عنق الحسناء يُستحسنُ العقدُ[4]

وحينما علم المتنبي أن هناك من يتعرض له ويتكلم بما يسوء ويعيبه في مجلس سيف الدولة الحمداني، قال معاتباً إياه، بصراحة وجرأة صادمة، إذ المعارف بين العقلاء ذمم ترعى، يجب الحفاظ عليها ورعايتها، فقال:

---

(١) م.س: ٣/ ١٤.
(٢) سرح العيون/ ابن نباتة المصري، ص٤٠.
(٣) شرح ديوان المتنبي/ صنعه عبد الرحمن البرقوقي: ٤/ ٨٣.
(٤) م.س: ٢/ ١١١.

وبيننا لورعيتم ذاك معرفة إن المعارف في أهل النّهى ذممُ[1]
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم فيكره الله ما تأتون والكرمُ
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم

إلى قوله غاضباً، متألما:

شر البلاد ومكان لا صديق به وشرّ ما يكسب الإنسان ما يصمُ[2]
بأي لفظ تقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجمُ[3]

وما الشعراء الذين ينالون منه وينتقصون منه إلا زعانف لا أهمية لهم، في مجال النظم المبدع ومعارض الأدب الراقية، إذ أولئك الشعراء ليست لهم فصاحة العرب ولا تسليم العجم، إنهم ليسوا شيئاً أصلاً، أما هو فمعدن أصيل عصي على الصدأ، فهو كالثريا سمّوا وبريقاً ومعرفة في سماء البراعة والتألق والشهرة الواسعة، حتى قال:

أرى المتشاعرين غروا بذمّي ومن ذا يحمد الداءَ العضالا[4]
ومن يك ذا فم مريض يجد مرّاً به الماءَ الزلالا

وما دام كل نعمة محسود، فلابد من انتفاض الحساد وضعاف الشاعرية، وأواخر الركب، من النيل منه بكل وسيلة تأمله وتثيره وتغضبه لأنه كان حديث المجالس خاصة والناس عامة لانبهارهم ودهشتهم بعبقريته صياغة وتألقاً وبراعة في اختيار المعاني الغريبة، المدهشة، المحدثة، التي لم تخطر على بال شاعر وخيال أديب، فقال مطالباً سيف الدولة بكبت الحساد وازالتهم وأبعادهم عن مجلسه:

---

(١) م.س. النهى: العقول.
(٢) ما يصم: ما يعيب.
(٣) م.س: ٨٧، ٩٠.
(٤) م.س: ٣/ ٣٤٤.

أزل حسد الحساد عني بكبتهم فأنت الذي صيّرتهم لي حُسّدا
وما الدّهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدّهر منشدا
وَدعْ كلّ صوت غير صوتي أنا الصائح المحكي والآخر الصدى[1]

وصدق أحد نقدة العرب حين قال في المتنبي «وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهرا، وعنوة، كالشجاع الجرئ، يهجم على ما يريده، ولا يبالي ما لقى ولا حيث وقع»[2]، وكان المتنبي لا يتردد في الفخر بنفسه، والإشادة بها، لأنه يعلم تمام العلم أنه لا يضاهيه أحد من الأمراء وما والاهم، فصاحة وبياناً وشاعرية مثيرة للجدل، إذ يختصم أرباب اللغة والعلم في معانيه ومراميه ومقاصده، كلما ألقى قصيدة، ويدهش الممدوحون من جرأته، عند الإنشاد واطلاق ما يشعر به من عزة نفس، وموهبة نادرة، وقلب جسور، حتى تعالى على الممدوح نفسه إن كان أميراً فهو الملك، وهذا ما قاله:

فارمِ بي ما أردت مني فإني أسد القلب آدمي الرواءِ
وفؤادي من الملوك وإن كان لساني يُرى من الشعراءِ[3]

أليست هذه العصامية الشاعرية، الوثابة، الثائرة، فهو فإن كان شاعراً آدمي الخلقة والمشاهدة، ولكنه شجاع بقلب ضيغم جرئ، لكن ذو فؤاده ملكي الطموح بل هو الملك المتصدر المجالس وسلوتها ومؤنسها، إذ كان الأمراء وأعيان الدولة يفتخرون بمجالسهم وما فيها من المناظرات ويتهادون بالحكمة والأمثال السائرة، وشوارد الشعر، ويستخرجون غوامض العلوم والمعاني المستغلة، كما يستخرج الغواص الدّر من أجساد الصدف، وما أكثر العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء وأرباب اللغة في

(١) شرح ديوان المتنبي/ صنعه عبد الرحمن البرقوقي: ١/ ١١.
(٢) شرح ديوان المتنبي/ وضعه عبد الرحمن البرقوقي: ١/ ١١.
(٣) م.س: ١/ ١٥٩.

تلك المجالس العامرة بنقاد الشعر، وأعيان الإمارة، لما فيها من المطارحات الشعرية، وتناشد الأشعار، والمناظرات الأدبية والفنية ولنا بما قال أحدهم: شاهد ودليل على ما قلناه:

وذكر في حلو الزمان وطيبه مجالس قوم يملئون المجالسا
حديثاً وأشعارا وفقهاً وحكمة وبرّ ومعروفا وإلفا مؤنسا[1]

وكان ذا عفة وصلاح نفس ولم يعرف أنه عاقر الخمور أو التفت إلى نساء ولذة عابرة، بل كان جاداً باحثاً عن معالي الأمور لا سفاسفها وهو القائل:

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا عقولُ[2]

وكان لا يستطيب ما يثلمه ويذله ولا ما يلطخ به عرضه وشرفه، فقال:

رأيتكم لا يصون العِرضَ جاركم ولا يدرّ على مرعاكم اللبنُ
وتغضبون على من نال رفدكم حتى يعاقبه التنغيص والمننُ
ولا أقيم على مال أُذِلُّ به ولا ألذّ بما عرضي به درن[3]

وليس تزجية الوقت واللهو من شيمه وسجاياه الخلقية، وهو الطامح لبناء مجده بيده، الصائن نفسه من العبث وما لا يغيره، بل كان رحالة، مسافراً، باحثاً عن الغنى لئلا يمد يده إلى من رذل وسفل بخلا معيبا، وشحا لئيما، إذ الفقر مضر ومميت لشاعرية وسمعة كل شاعر كريم، أبي على الضيم والذل، وهذا ما قاله:

ليس التعلل بالآمال من أر بي ولا القناعة بالإقلال من شيمي[4]

---

(١) معجم الأدباء/ ياقوت الحموي: ١/ ٩٥.
(٢) شرح ديوان المتنبي/ صنعه عبد الرحمن البرقوقي: ٣/ ٢٣٠.
(٣) م.س: ٤/ ٣٦٧، ٣٦٩. الدرن: الوسخ وما يعيب ويشين.
(٤) م.س: ٤/ ١٥٥.

ولم يكن على وفاق مع الزمن، لكثرة الحساد والموغلون حقدا وضغينة عليه، لأنه المتباري الوحيد في مضمار الحداثة والتجديد والصياغة البارعة، المدهشة، لهذا عانى كثيراً من الاغتراب النفسي، وأوجاع المتنمرين عليه، ليقول متألماً:

كيف الرجاء من الخطوب تخلصا ... من بعد ما أنشبنا فيّ مخالبا
أضمتني الدنيا فلما جئتها ... مستسقياً مطرت عليّ مصائبا[1]

لقد كان ماهراً في الوصف، فما وصف حالة أو ظاهرة أو شيئاً إلا جاء مطابقاً للشيء نفسه وإن أضاف من نسج خياله ما يجعل الصياغة متفردة نظماً وبريقاً، فلا يكتفي بإيراد المواقف والحالات العصيبة التي يمر بها بل يحاول أن يحلل ويفسر ويدعمها بالبرهان والحجة لتكون مقنعة للسامع حتى تأتي قصيدته في غاية الإتقان والروعة، وهذا ما ورد في قوله:

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي من غشاء من نبالِ[2]
فصرت إذا أصابتني سهامٌ ... تكسّرت النّصال على النّصالِ[3]

وقد بلغ أبا الطيب المتنبي أن قوماً أشاعوا موته ونعوه في مجلس سيف الدولة في حلب وهو كان بمصر، فانتفض محتجاً، ثائراً، فكتب قصيدة إلى سيف الدولة الأبيات الرائعة، المدهشة، تصويرا وصياغة ومعنى وألفاظاً تكاد تكون أرواحاً تتكلم لصدق المشاعر وصدمة الخبر:

يا منُ نعيت على بعد بمجلسه ... كلّ بما زعم الناعون مرتهن[4]

(١) شرح ديوان المتنبي/ صنعه عبد الرحمن البرقوقي: ١/ ٢٧١.
(٢) لم يبق من قلبه غير غشاء يستره بعد تألم الجوهر.
(٣) م.س: ٣/ ١٤١.
(٤) يذكرنا ذلك بقول الله تعالى: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾. الطور/ ٢١.

كم قد قُتلتُ وكم قد مُتُّ عندكم ثم انتفضت فزال القبر والكفن
قد كان شاهد دفني قبل قولهم جماعةٌ ثم ماتوا قبل من دَفنوا
ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ[1]

فقصيدته فن وبناء لغوي رصين، شاعر صادق بما يقول، وذو ذهنية فريدة، مثالية، وخيال خصب واسع الآفاق والمعالم، وبصيرة مستبصرة نادرة، ومن ثم هي نتاج الانفعال المتعقل الرشيد، بل هي التفاعل مع تجارب ومفاصل الحياة كلها، في حدود العلاقة بين الفن الخلاق والواقع المرير الذي عاشه، إذ لا يمر بتجربة أو موقف محرج، مؤلم إلا أحاله شعراً يجسد مشاعره وأحاسيسه، إذ هو السفير الأمين بينه وبين مجتمعه، لأنه أراد إثبات جدارته وقوة عزيمته وصلابة إرادته لنيل ما يصبو إليه، من منصب سياسي مشرّف، يُعلي شأنه، ويحقق حلمه الذي طالما ناضل سنوات طوالا وتحمّل المشاق، وحسد المتشاعرين، وزعانف المتطاولين عليه ظلماً وعدوانا، لأنه الأجدر والأفضل ابداعاً وكفاءة وشاعرية، فليس الأمراء ومن والاهم بأعلى رتبة ومقاماً منه وهو القدح المعلى وحديث مجالس العلم والأدب والمناظرات، المتفرد أصالة، وتجديداً في رفد الحياة الثقافية بنتاجه الغزير المحدث، المتعالي على المعاني المستهلكة المملة، الساعي، المجتهد، المناضل من أجل الوصول إلى سدة المجد ومراقي الفلاح العقلي والأدبي، إنه العصامي الجاد الذي لا يعتمد على تراث أباء قديم وحسب ونسب تليد، بل لا يتشرف بأحد من قومه، بل هم الذين تشرفوا به، وشرفهم وأعلى مقاماتهم في محافل الفخر ومجالس الأعيان وكبار رجال الدولة، بعد أن أصبح شاعر العرب الأوحد بلا منازع، وهذا ما ورد في قوله:

(١) شرح ديوان المتنبي/ صنعه عبد الرحمن البرقوقي: ٤/ ٣٦٥-٣٦٦.

فاطلب العزّ في لظى وذر الذّ ل ولو كان في جنان الخلودِ[1]
لا بقومي شُرفت بل شرفوا بي وبنفس فخرت لا بجدودي
أنا ترب الندى وربّ القوافي وسِمام العدا وغيظ الحسودِ[2]
أنا في أمة تداركها اللـ ـهُ غريب كصالحٍ في ثمودِ[3]

لقد كبر أكبر طموحه وأمله لهذا أتعبه المسير وأرهقه الرحيل لعله يوليه ولاية أو إمارة لأنه يستحقها بجدارة لما له من العقلانية الفذة التي تستنطق الواقع، الحاضر، وتتشرف المستقبل، القادرة على إدارة أمور الولاية أو الإمارة لكنه فشل في ذلك، ولطالما حاول تنبيه الأمراء وسلطان مصر كافور الأخشيدي على ما يريد رغم قصائدهم الرائعة فيهم، وعوتب كافور في ذلك مرارا، ولماذا لم يحقق له مراده وأمله بتوليته ولاية أو إمارة، من ولايات مصر وإماراتها؟ فتارة يصرح المتنبي بما يريد وأخرى يلمح ويعرض بما يطلب، وهذا ما قال لكافورا الأخشيدي سلطان مصر:

إذا لم تنط بي صنيعة أو ولاية فجودك يكسوني وشغلك يُسلبُ[4]

فالمتنبي لا يهمه المال وكافور لم ينتبه إليه ويتشاغل عنه بأمور أخرى مما يعني أنه غير عازم على توليته ونيل مراده، ثم اتخذ التعريض والتلميح أسلوباً دون التصريح حفاظاً على بقية من ود واحترام بينهما فقال لكافور:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب[5]

(١) لظى: توقد وتلهّب.
(٢) الترب: من ولد معك وفي وقت واحد. الندى: الجود. رب القوافي: مبدع معانيها من الشهرة الواسعة والسمعة الطيبة وهذا ما يغيظهم ويؤلمهم.
(٣) شرح ديوان المتنبي/ صنعه عبد الرحمن البرقوقي: ٢/ ٤٦.
(٤) شرح ديوان المتنبي/ صنعه عبد الرحمن البرقوقي: ١/ ٣٠٧.
(٥) م.س: ١/ ٣٢٤.

وبعد أن يأس ونفض يده مما كان يأمل قال:

وأتعب خلق الله من زاد همّه وقصّر عما تشتهي النفس وجدهُ[1]

وهو يعني بذلك نفسه لما لاقاه من نكران جميل، وقساة قلب، وتجبر فارغ، ونحوس نجم، وحظ عاثر، وسعيه الدائم للوصول إلى مراده الاداري السياسي وهذا ما ورد في قوله:

أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود
عش عزيزا أو مُتْ وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود[2]

وأكد ما ذهب إليه بقوله:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم[3]

لأن العاقل يتألم ويشقى وإن كان منعما، مرفها، لأن فكره مشغول بعاقبة الأمور وخاتمة المطاف فالظروف متغيرة وبقاء الحال من المحال، والجاهل جاهل بما ينتظره وغافل عما سيحل به مستقبلاً لقلة تفكيره في العواقب وما وراء الغيب من أسرار وأقدار لا يعلمها إلى الله تعالى، وحين ألح البعض على كافور يحثونه على تكريم المتنبي بولاية أو إمارة وسبق أن وعده كافور بولاية من أعماله، لكن لما رأى تعاليه في شعره، وسموه في نفسه، خاف منه، فقال لمن عاتبوه فيه: «يا قوم من ادّعى النبوة بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) أما يدعي المملكة مع كافور؟! فحسبكم»[4]، اي كفاكم عتابا ومقالا!! وعرف المتنبي بتوليد المعاني وما يقم بذلك إلا النوابغ الكبار من الشعراء،

(١) م.س: ٢/ ١٢٢.
(٢) م.س: ٢/ ٤٥. القنا: الرماح. البنود: الأعلام الكبيرة.
(٣) م.س: ٤/ ٢٥١.
(٤) م.س: ١/ ٤.

وهذا البيت يؤكد ذلك، حين هجا القاضي الذهبي:

سمّيتَ بالذهبي اليوم تسميةً مشتقة من ذهاب العقل لا الذهبِ[1]

وهجا بعض الحاقدين أحمد ممدوحي المتنبي وعزوا ذاك الهجاء للمتنبي للإيقاع بينهما، فعاتبه الممدوح على ذلك، فكتب المتنبي قصيدة منها:

أأنطق فيك هُجرا بعد علمي بأنك خير من تحت السماءِ

وهبني قلت: هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء؟![2]

وإن بالغ في أوله ومردود ما قاله، لكن صدق في آخره، وهكذا بقي متهماً، ملاحقاً، من ضعاف الشعراء، وهو البرئ مما اتهم به، كلما في الأمر أنه السابق في كل مضمار وحلبة، المعترف به شاعر العرب الأوحد ولا يضاهيه شاعر في عبقريته وصياغته المتماسكة التي وقف عند حدودها النقاد وجهابذة اللغة، معجبين بشاعريته، وعقلانيته واختياراته الصائبة، ومحسناته البديعة، فهو من المولدين، المحدثين، الباعثين على التجديد والحداثة، إذ هو الجوزاء علواً وسمّوا ولا يضيره إن لم تراه مقلة عمياء، وهذا ما جاء في قوله:

إنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت وإذا نطقت فإنني الجوزاء

وإذا خفيت على الغبي فعاذر أن لا تراني مقلة عمياء[3]

ولكن رغم المتاعب والصعاب والمعاناة من كثرة الحساد، وحقد الحاقدين، والاغتراب الوجودي النفسي، وقسوة الغربة والبعد عن ديار الأحبة والوطن، حتى أرهقه الحل والترحال، ليقول:

---

(١) م.س: ١/ ٣٤١.

(٢) شرح ديوان المتنبي/ صنعه عبد الرحمن البرقوقي: ١/ ١٣٨. الهُجر: الكلام القبيح السيئ.

(٣) م.س: ١/ ١٤٣، ١٤٤.

قد كنت أشفق من دمعي على بصري فاليوم كلّ عزيز بعدكم هانا

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفيس غريب حيثما كانا[1]

ثم قوله:

وفارقت الحبيب بلا وداع وودّعت البلاد بلا سلام[2]

وقد أبدع إيّما إبداع موشحاً أبياته بالطباق البلاغي، وصدق المشاعر حتى تكاد تكون الأبيات لوحة زيتية بريشة فنان ماهر خبير في اختيار الألوان والظل والضياء، وتشعر أنك أنت العاشق نفسه لقوة الإيحاء المنبعث من خلال الصياغة البديعة والمعاني المثيرة للنفس، إنه شاعر التجسد الايحائي، إنها العذرية الصادقة لعفته في منطقه وشريف مقاصده، وهذا ما قاله:

ولما التقينا والنوى ورقيبنا غفولان عنّا ظلت أبكي وتبسمُ

فلم أرَ وجهاً ضاحكاً قبل وجهها ولم تر قبلي ميّتا يتكلّمُ!! [3]

وقد توثقت عصاميته من خلال اعتماده على نفسه وما هو عليه من المواهب الخلاقة والملكات الذاتية والمواهب المتعددة مادة ومعنى، وقدراته الابداعية، دون الالتفات إلى تراث الآباء وحسب الأجداد القديم والنسب التليد، بل هو الذي بنى مجده بيمينه وظهيره عزيمة لا تنكسر وإرادة قوية، وإبداع لا مثيل له، وبقي مناضلاً مستميتاً لتحقيق مراده الأدبي وحلمه العلمي ليكون شاعر العرب الأوحد، وفارس البلاغة والفصاحة والبيان، وأمير الحداثة والتجديد في اختراع المعاني، إذ لا يباريه أحد فيجازف لمنازعته، على ما حصل عليه من الأعجاب والتقدير والثناء عليه وعلى شاعريته المتألقة حتى

(١) م.س: ٤/ ٣٥٣، ٣٥٤.

(٢) م.س: ٤/ ٢٧٨.

(٣) م.س: ٤/ ٢٠٢.

انشغل علماء اللغة بشرح ديوانه وتفسير معانيه ومراميه ومقاصده حتى تجاوزت الأربعين شرحاً ما بين مختصرات ومطولات[1]، أليس هو الذي أكد عصاميته بقوله:

ومن تكن الأسد الضواري جدوده يكن ليله صبحاً ومطعمه غصبا[2]

ولست أبالي بعد إدراكي العلا أكان تراثا ما تناولت أم كسبا!!

وهو القائل: «أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري»[3].

وهذا تواضع منه وإن انصف الآخرين، لكن واقع الحال غير ما قال، فالحكمة غرض من أغراض شعره، على أية حال فقد تحققت عصاميته النضالية الأدبية واهتزت وربت وما زال الشعراء يقطفون ثمارها ويستظلون بظلالها، وينطبق على ما ذكرناه قوله:

وليس يصحّ في الإفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل[4]

نتائج البحث: هذا ما توصلت إليه من نتائج البحث:

١ - اعتقد الكثير من المؤرخين وأرباب العلم أن العصامية مقتصرة على آحاد من الناس، وهذا ما كان مع عصام بن شهير حاجب الملك النعمان بن المنذر، الذي اعتمد على نفسه وقدراته الذاتية وموهبته الإدارية دون الاعتماد على تراث آبائه وأجداده حتى تدرج من أدنى الأعمال إلى أعلاها رتبة ألا وهي رتبة الحجابة، حتى ضرب المثل بعصاميته وسميت باسمه.

٢ - تأكد لنا من خلال الأدلة والبراهين والشواهد التأريخية أن العصامية لا تقتصر على

(١) وفيات الأعيان/ ابن خلكان: ١/ ١٢١، شذرات الذهب/ ابن العماد الحنبلي: ٣/ ١٤.
(٢) شرح ديوان المتنبي/ صنعه عبد الرحمن البرقوقي: ١/ ١٨٥ ، ١٨٦.
(٣) م.س: ١/ ١٢.
(٤) م.س: ٣/ ٢١٥.

آحاد من الأفراد، وذلك لاختلاف الآراء والعقول والإرادات لتحقيق المراد ثم الترقي من الدون إلى الأعلى مقاماً ومنصباً.

٣- لم تكن العصامية منفصلة عن مفاصل الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إذ للظروف المتغيرة آثارها البليغة في تحقيق العصامية أو فشلها، إذ لا يجوز تجاوز العقبات في حياة مضطربة، فوضوية، لانشغال الجميع في الحفاظ على حياتهم وسبل معاشهم، ولا يتم ذلك إلا بوجود السلام المجتمعي والأمن الغذائي، واستقرار الأوضاع السياسية والاقتصادية.

٤- نظراً لاختلاف الإرادات والملكات العقلية والمواهب الخلاقة، والظروف المريحة، المتاحة، فقد اختلفت الأساليب الموصلة لتحقيق الهدف المنشود بالجهود الفردية الذاتية وذلك بالاعتماد على النفس التواقة لكل ما هو راق ونبيل من الأعمال التي تتشرف بالقيام به وتفتخر بتسلمه والحصول عليه.

٥- من خلال البحث تأكد لنا اختلاف أساليب الوصول إلى نهاية المطاف وتحقيق المراد اعتماداً على الذات ومالها من قوى وملكات ومواهب مادية ومعنوية، وبسبب ذلك الاختلاف تعددت صور العصامية ومسالكها، فهنالك من وصل بحنكته الإدارية واستيعابه سياسة الملوك، وآخر بإيثاره ونزعته الإنسانية، الاشتراكية، ومنهم بفروسيته وقيمها الأخلاقية، أو باتخاذ العمل السياسي وضبط أمور الدولة إدارياً وأمنياً وسياسياً، وآخرهم المتنبي بتفوقه الإبداعي، وشاعريته النادرة المثال، وصياغته الفنية المتفردة أصالة وحداثة بمعان غريبة، مخترعة، محدثة ويسهر الخلق جراها ويختصم حتى أصبح شاعر العرب الأوحد الأمجد بلا منازع ومثيل، ويكفي أنه المتنبي!!!.

٦- وعلمنا أخيراً أن العصامية ليست واحدة، من حيث تعدد الطرق والسالك لتحقيقها، ولكن الهدف واحد، إذ هي نضال فردي وجهد ذاتي لنيل المراد دون الالتفات

إلى تراث الآباء القديم وحسب ونسب الأجداد التليد، منها تحدي الصعاب والعقبات وتحمل المشاع لبلوغ أرقى المناصب وهذا ما كان يأمله ويرجوه كل عصامي، ولا أقول أنني استوعبت كل ما له علاقة بعالم العصامية والعصاميين، ولكن حاولت استيعابها بكل صدق وإخلاص، وتوصلت إلى بعض الحقائق التأريخية، تقنع المنصفين، وترضي الباحثين، ويبقى الباب مفتوحاً لأي باحث مجتهد، لإضافة ما يراه مفيداً لما بدأت به، وما الكمال إلا لله وحده سبحانه، والحمد لله أولاً وآخراً.

المصادر والمراجع

١- أديان الهند الكبرى، د. أحمد شلبي، نشر وطبع مكتبة النهضة المصرية، ط٣، ١٩٧٢م.

٢- الأعلام، خير الدين الزركلي، مطبعة كوستا توماس، ط٢، ١٩٥٤-١٩٥٩م.

٣- الحماسة البصرية، صدر الدين البصري، تحقيق مختار الدين أحمد، عالم الكتب - بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

٤- أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

٥- الفكر الفلسفي الهندي، د. سرفيالي كرشنا، د. شارلز مور، ترجمة ندرة اليازجي، لبنان، ١٩٦٧م.

٦- الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، دار القلم، بيروت، ط٣، د.ن.

٧- العراق في التأريخ، مجموعة من أساتذة التأريخ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣م.

٨- العراق القديم، جماعة من علماء الآثار السوفيت، ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد، ط٢، ١٩٨٦م.

٩- المذاهب الكبرى في التأريخ، البان، ج، دي، جيري، ترجمة ذوقان قرقوط، دار القلم

- بيروت.
١٠- جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
١١- جمهورية افلاطون، ترجمة حنا خباز، دار الأندلس، بيروت، د.ن.
١٢- ديوان جرير، إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
١٣- ديوان عنترة، دار صادر، بيروت، د.ن.
١٤- ديوان عنترة ومعلقته، تحقيق الأستاذ خليل شرف الدين، دار مكتبة هلال، دار البحار، بيروت، ٢٠٠٨م.
١٥- ديوان عروة بن الورد، أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠م.
١٦- سرح العيون، ابن نباتة المصري، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، منشورات المكتبة المصرية، صيدا - بيروت، ١٩٨٦م.
١٧- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
١٨- شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٣٨م.
١٩- قاموس المذاهب والأديان، إعداد: د. حسين علي، دار الحياة، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
٢٠- عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة، فوزي محمد، جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا - طرابلس، ط٢، ١٩٩٩م.
٢١- عقائد ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين، نائل حنون، دار الشؤون الثقافية - وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد، ط٢، ١٩٨٦م.

٢٢- كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، مطابع كوستا توماس وشركاه، القاهرة، د.ن.

٢٣- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار ومكتبة الهلال، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، د.ن.

٢٤- لامية العرب، مطبعة دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٥م.

٢٥- لباب الألباب، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق الدكتور قحطان رشيد، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٨م.

٢٦- لسان العرب، لابن منظور، الأفريقي، المصري، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٩٨م.

٢٧- ملحمة جلجامش، طه باقر، وزارة الإعلام العراقية، مطابع الحرية، بغداد، ط٢، ١٩٧١م.

٢٨- مجمع الأمثال، لأبي الفضل الميداني، دار القلم، بيروت، د.ن.

٢٩- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار احياء التراث العربي، ط٢، ١٩٣٦م.

٣٠- معجم الشعراء الجاهليين، د. عزيزة فوال، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٣١- معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة، مانفرد لوكر، ترجمة صلاح الدين رمضان، الناشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٣٢- معجم العلوم الاجتماعية، ناتاليا بريموفا، توفيق سلوم، دار التقدم - موسكو، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٣٣- موسوعة الفلسفة والفلاسفة، د. عبد المنعم الحفني، الناشر: مكتبة المدبولي، القاهرة، ط٣، ٢٠١٠م.

٣٤- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.